

١٦

سلسلة

صَفِيَّةُ مَيْمُونَةُ حَيْثُ أَخْطَبَتْ

الجزء الأول

اخْتَارَتِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

بقلم : د. وجيه يعقوب السيد

بريشة : أ. عبد الشافي سيد

إشراف : أ. حمدي مصطفى

دار النشر

أَفَافَتْ صَفِيَّةُ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ نَوْمِهَا مَذْعُورَةً فَسَأَلَتْهَا أُمُّهَا فِي قَلْقٍ :

- مَا بِكَ يَا بَنَّتِي ؟

فَقَالَتْ :

- لَقَدْ رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا عَجِيبَةً حَقًّا ، وَلَا أَعْرِفُ لَهَا تَفْسِيرًا .

فَقَالَتْ أُمُّهَا فِي لَهْفَةٍ :

- وَمَا هِيَ ؟

فَقَالَتْ صَفِيَّةُ :

- رَأَيْتُ الْقَمَرَ فِي السَّمَاءِ فِي لَيْلَةٍ تَمَامِهِ وَقَدْ وَقَعَ فِي حِجْرِي !

وَلَمْ تَتِمَّا لِكَ الْأُمِّ نَفْسَهَا ، فَهَوَتْ بِيَدِهَا عَلَى وَجْهِ ابْنَتِهَا ،

وَلَطَمَتْهَا لَطْمَةً قَوِيَّةً تَرَكَتْ فِي وَجْهِهَا أَثْرًا ، وَهِيَ تَقُولُ :

- إِنَّكَ تَتَطَلَّعِينَ إِلَى أَنْ تَكُونِي عِنْدَ مَلِكِ الْعَرَبِ يَا خَبِيثَةُ .

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ ، وَبَالَ صَفِيَّةُ مَشْغُولٌ بِتَفْسِيرِ هَذِهِ الرُّؤْيَا ،

وَزَادَ مِنْ انْشِغَالِهَا مَا فَعَلَتْهُ أُمُّهَا بِهَا وَمَا ذَكَرَتْهُ عَنْ مَلِكِ

الْعَرَبِ ، فَمَنْ يَكُونُ مَلِكُ الْعَرَبِ هَذَا ؟

وَرَاحَتْ صَفِيَّةُ تُتَابِعُ مَعَ قَوْمِهَا مِنَ الْيَهُودِ أَخْبَارَ النَّبِيِّ ﷺ

فأجاب الأب :

- نعم والله ، لقد عرفتُه بعلامات النبوة ، كما يعرفه كل يهودي .

فقال العم في دهشة :

- أتعرفه وتبته ؟

فأجاب :

- نعم .

وعاد العم يسأل :

- فما في نفسك منه ؟

فأجابه حيي بن أخطب في غيظ :

- عداوته والله ما حيت !

وعلمت صقية أن أمها كانت تقصد بملك الغرب محمد

ابن عبد الله ، وأن الصراع بينه وبين أبيها سيشتعل ، وأن

الأقدار تخفي لها الشيء الكثير ..

وما هي ذى تعيش على أمل الانتظار ، وتطلع إلى الغد

المرتقب الذى تتحقق فيه رؤياها .

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ مُسْرِعَةً ، وَبَدَأَ الصَّرَاعُ يَشْتَدُّ بَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ
وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَانْحَازَ الْيَهُودُ إِلَى جَانِبِ الْمُشْرِكِينَ ،
بِرَغْمِ عَهْدِهِمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، أَلَا يَتَحَالَفُوا ضِدَّهُ أَوْ
يَتَأْمُرُوا عَلَيْهِ .

وَبَعْدَ خِيَانَةِ الْيَهُودِ وَتَأْمُرِهِمْ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي غَزْوَةِ
الْخَنْدَقِ ، كَانَ لَا بُدَّ مِنْ وَقْفَةِ حَاسِمَةٍ مَعَ هَذِهِ النُّفُوسِ



الشَّريفة والخائنة ، فأمر الرسول ﷺ أصحابه بالتوجه إلى خيبر .

وسار الرسول ﷺ وأصحابه إلى خيبر في أواخر شهر المحرم للسنة السابعة للهجرة ، وكان معه ﷺ في هذه الغزوة ألف وأربعمائة مقاتل ، فلما اقترب الرسول ﷺ من هذه القرية ، رفع يديه إلى السماء ودعا ربه قائلاً :

- اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فإننا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها .

ثم قال لأصحابه :

- أقدموا باسم الله !

فاندفع المسلمون كالسيل نحو حصون اليهود ، وراحوا يفتحونها حصتا حصتا ، وما كاد اليهود يرونهم حتى امتلأت قلوبهم بالرعب ، فولوا هاربين وهم يقولون :

- محمد وأصحابه ، لا طاقة لكم اليوم بهم يا معشر اليهود .

ولما رأى رسولُ الله ﷺ ذلك قال مُبْتَهَجًا بِالنَّصْرِ :

— اللَّهُ أَكْبَرُ ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ ، إنا إذا نزلنا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فِساءِ

صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ !

وَاسْتَطَاعَ الْمُسْلِمُونَ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ أَنْ يَفْتَحُوا مُعْظَمَ



حُصُونُ الْيَهُودِ ، بِاسْتِثْنَاءِ حُصُونِ قَلِيلَةٍ ، حَيْثُ رَجَعَ
أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بَعْدَ أَنْ اسْتَعْصَى
عَلَيْهِمَا فَتَحَ هَذِهِ الْحُصُونِ ، وَأَخْبَرَ الرَّسُولَ ﷺ بِذَلِكَ ،
فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

— لَا دَفْعَ لِرَوَائِي غَدًا إِلَى رَجُلٍ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ ، يُحِبُّ
اللَّهُ وَرَسُولَهُ .

وَبَاتَ الْمُسْلِمُونَ لَيْلَتَهُمْ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ هُوَ
صَاحِبُ اللَّوَاءِ ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

— أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؟

فَقَالُوا لَهُ :

— هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي وَجَعًا أَصَابَ عَيْنَيْهِ .

فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ :

— فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ .

فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ ، فَجَاءَ عَلِيٌّ فِي الْحَالِ ، وَهُوَ لَا يَكَادُ يَبْصُرُ
أَمَامَهُ مِنْ شِدَّةِ مَا بِهِ مِنْ وَجَعٍ ، فَدَعَا لَهُ الرَّسُولُ ﷺ

بِالشِّفَاءِ ، فَشَفَاهُ اللَّهُ تَمَامًا ، حَتَّى كَانَ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ .

وَأَعْطَى الرَّسُولُ ﷺ الرَايَةَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأَمَرَهُ أَنْ
يَفْتَحَ هَذِهِ الْحُصُونُ الْمَنِيعَةَ ، فَأَخَذَ عَلَى اللِّوَاءِ وَهُوَ يَقُولُ :
- يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَأُقَاتِلَنَّهُمْ حَتَّى يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ .



فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ :

- أَنْفِذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى
 الْإِسْلَامِ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ .
 ثُمَّ قَالَ لَهُ :

فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُر النعم !
وانطلق علي بن أبي طالب إلى حصون أهل خيبر ، فقاتل
قتال الأبطال حتى كان الفتح على يديه ، وغنم المسلمون
كل ما في تلك الحصون من الأموال ، ووقع عدد كبير من
النساء سبايا للمسلمين .

وكان من بين السبايا « صفية بنت حيي بن أخطب » زعيم
بنى النضير ، والتي ينتهى نسبها إلى هارون عليه السلام .

ونظر المسلمون إلى «صفية» فرقوا لحالها وقالوا :

لَقَدْ فُجِعَتْ هَذِهِ الْمَسْكِينَةُ بِفَقْدِ أَهْلِهَا فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ ،
كَمَا أَنَّهَا وَقَعَتْ أَسِيرَةٌ هِيَ وَابْنَةُ عَمِّهَا ، بَرَّغَمَ أَنَّهَا بِنْتُ
زَعِيمٍ كَبِيرٍ لَهُ مَكَائِنُهُ بَيْنَ قَوْمِهِ .

ثم قالوا لبلال :

- اذهب بهما إلى رسول الله ﷺ ، لكي يقرر بنفسه

ما يراه مناسباً بشأنهما .

واصطحب بلال بن رباح المرأتين ، ومر بهما عبر الوادي

الذي شهد هذه المعركة ، وكانت جثث القتلى ما تزال



مُلَقَاةً عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ ، وَمَا إِنْ رَأَتْ «صَفِيَّةُ» هَذَا الْمَنْظَرَ
حَتَّى فَاضَتْ عَيْنَاهَا بِالدمْعِ ، لَكِنهَا ظَلَّتْ هَادِثَةً صَامِتَةً ، أَمَا
ابْنَةُ عَمِّهَا فَقَدْ رَاحَتْ تَحْثُو التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا وَتَصْرُخُ
بِأَعْلَى صَوْتِهَا ، وَلَمْ تَتَوَقَّفْ عَنِ الْبُكَاءِ وَالصُّرَاخِ ، حَتَّى قَالَ
الرَّسُولُ ﷺ فِي غَضَبٍ :

— أَبْعِدُوا هَذِهِ الشَّيْطَانَةَ عَنِّي !

ثُمَّ قَالَ لِبَلَالٍ مُعَاتِبًا :

— أَنْزِعَتِ الرَّحْمَةُ مِنْ قَلْبِكَ حِينَ تَمُرُّ بِالْمَرَأَتَيْنِ عَلَى
قَتْلَاهُمَا ؟

وَقَالَ بَلَالٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ :

— يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ حَيٍّ كَانَتْ فِي سَهْمٍ أَحَدِ
الصَّحَابَةِ ، وَلَكِنْ أَهْلُ الرَّأْيِ وَالْمَشُورَةِ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهَا
لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَكَ ، لِأَنَّهَا سَيِّدَةُ نِسَاءِ بَنِي النَّضِيرِ .

فَاسْتَحْسَنَ الرَّسُولُ ﷺ هَذَا الرَّأْيَ ، وَأَبَى أَنْ تَكُونَ صَفِيَّةُ
بِنْتُ حَيٍّ سَيِّدَةً لِبَنِي النَّضِيرِ أُمَّةً مَمْلُوكَةٌ لِمَنْ هُوَ دُونُهَا مَكَانَةً ،
فَأَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ أَصْحَابَهُ فَحَمَلُوا صَفِيَّةَ عَلَى بَعِيرِهِ ،

فَعَلِمُوا أَنَّ الرُّسُولَ ﷺ قَدْ اصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ وَقَالُوا لِبَعْضِهِمْ :
 - لَقَدْ اصْطَفَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَفِيَّةَ لِنَفْسِهِ ، وَبِذَلِكَ فَقَدْ
 نَجَّاهَا اللَّهُ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ ، وَعَوَّضَهَا عَنْ فَقْدِ أَهْلِهَا خَيْرًا .
 وَتَطَلَّعَتْ صَفِيَّةٌ إِلَى الرُّسُولِ ﷺ ، قَرَأَتْ ثَوْرًا يَضِيءُ مِنْ
 جَبِينِهِ ، وَهَمَّتْ بِأَنْ تَتَكَلَّمَ لَكِنْ حَيَاءُهَا مَنَعَهَا مِنْ ذَلِكَ .



وحاول الرسول ﷺ أَنْ يُخْرِجَهَا مِنْ صَمْتِهَا وَيُدْخِلَ
السُّرُورَ إِلَى قَلْبِهَا فَسَأَلَهَا قَائِلًا :

— هَلْ لَكَ فِيَّ ؟

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ تَذَكَّرَتْ صَفِيَّةُ الرُّؤْيَا الَّتِي رَأَتْهَا مِنْهُ
أَعْوَامٍ وَقَالَتْ لِنَفْسِهَا :

— أَحَقًّا سَأَكُونُ زَوْجَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟

وَنَظَرَتْ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي إِكْبَارٍ وَقَالَتْ :

— قَدْ كُنْتُ أَقْنَى ذَلِكَ وَأَنَا فِي الشَّرْكِ ، فَكَيْفَ إِذَا أَمَكَّنَنِي
اللَّهُ مِنْهُ فِي الْإِسْلَامِ !

وَخَشِيَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ تَكُونَ صَفِيَّةٌ قَدْ وَافَقَتْ عَلَى
الزَّوْاجِ مِنْهُ ، لِأَنَّهُ لَا سَبِيلَ أَمَامَهَا سِوَى ذَلِكَ ، فَهِيَ مَمْلُوكَةٌ
لَهُ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَهَا وَإِنْ شَاءَ أَعْتَقَهَا لِرُوحِ اللَّهِ ، فَقَالَ لَهَا
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

— اخْتَارِي ، فَإِنْ اخْتَرْتِ الْإِسْلَامَ أَمْسَكْتُكَ لِنَفْسِي ، وَإِنْ
اخْتَرْتِ الْيَهُودَ فَعَسَى أَنْ أَعْتِقَكَ فَتَلْحَقَنِي بِقَوْمِكَ !

يا رسول الله ، لقد هويت الإسلام ، وصدقت بك قبل
أن تدعوني ، حيث صرت إلى رحلك وما لي في اليهود أرب ،
وما لي فيها والد ولا أخ .



ثم أضافت قائلة :

- وقد خیرتني بين الكفر والإيمان ، فالله ورسوله أحبُّ
إليَّ من العتق ، وأن أرجع إلى قومي !

وأعجب الرسول ﷺ بجوابها ، وشعر فيه بالصدق
والإيمان ، فأمسكها لنفسه ، ثم تزوجها ، وكان في هذا
الزواج إعلاءً لمكانة صفية بنت حيي بن أخطب ، حيث
صارت أمًا لكل المؤمنين ، بعد أن كانت على وشك الوقوع
في مهانة الأسر والعبودية ، ولعبت صفية في حياة النبي ﷺ
دورًا مهمًا للغاية !

(تمت)

الكتاب القادم

صفية بنت حيي بن أخطب (٢) حكمة زواج النبي ﷺ

رقم الإبداع : ٢٠٠٣ / ٢١١٦

الترقيم الدولي : ١ - ٧٣٧ - ٢٦٦ - ٩٧٧